

نَادِ الْمُهَاجِرِينَ

الرَّسَالَةُ النَّابُوكِيَّةُ

لِابْنِ الْقَيْمِ الْجَوُزِيَّةِ

تَحْقِيقُ
سَيِّدِ إِبْرَاهِيمَ

وَارِثِ الْخَيْرِ



نَادِي الْمُهَاجِرِينَ الرسالة النبوكية

٦٩١ - ٧٥١ هـ

تحقيق وتعليق

أبو حفص

سيد إبراهيم صادق

دار الطهرين

طبع . نشر . توزيع

كافة حقوق الطبع محفوظة

إدارة المكتبة

إدارة مكتبة ١٤٠ شارع جوهر القائد - أمام جامعة الأزهر
سجل ٩١٩٦٩٧ ٩١٨٧١٩-٩٢٦٥٠٨ تليكس ٩٢٩٨٥ - ٢٣١٦٣ كايروسي

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« تقديم »

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور انفسنا وسيئات أعمالنا من يهديه الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له .
وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له .
وأشهد ان محمداً عبده ورسوله « ﷺ »

« اما بعد »

هذه هي الرسالة التبوكية لابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى فهي رسالة قيمة على صغر حجمها ولكن فيها فوائد علمية جمة عرف من خلالها الفرق بين البر والتقوى وما بينهما من عموم وخصوص ثم انتقل إلى مفهوم العلم النافع والعالم الحق وعرف الاثم والعدوان والعلاقة التي بين العبد وربّه ثم الهجرة الحقيقية التي ينبغي لكل مسلم ان يهاجرها وما هو مبدأها ومنتهاها ثم تطرق إلى كيفية الفرار من الله ثم انتقل مرة أخرى الى نوعى الهجرة فجعل الأولى الهجرة العارضة والثانية الهجرة العارضة .

وتناول هؤلاء الذين يتسكون بكلام مذاهبهم وطوائفهم وفرقهم مخالفين بذلك الحق وأتباعه جهلاً منهم أو تعصباً لمذاهبهم وفرقهم وكأنه يعيش بيننا حيث نجد بعض المتعصبين لفرقهم أو مذاهبهم يروون الأحاديث الصحيحة والنقول السليمة من اهل السلف وعلماء الأمة لأن كلامهم يخالف مذهبه ورأيه ان كان من اصحاب الرأي الذين ابتلينا بهم في هذا الوقت وتناول المؤلف موقف الأئمة من السنة وعلقنا عليه ببحث لشيخنا الألبانى والرسالة على كل حال مليئة بالفوائد والأعاجيب فتراه فيها مفكراً بارعاً ومفسراً عظيماً يحول بين الآيات ويصول ويستخرج منها العبر والعظات ومعاني واسرار لم يسبقه اليه أحد فرحم الله ابن القيم رحمة واسعة . ولقد طبعت هذه الرسالة من قبل بتقديم الدكتور الفاضل ، محمد جميل غازى قدمها في قالب جيد ومنظم وهي التي اعتمدت عليها في التحقيق فكان عملي فيها كالآتي :

- ١ - تخريج بعض الآيات التي تركها الدكتور رحمه الله تعالى
- ٢ - قمت بتخريج الأحاديث التي في رساله وعزوها الى مصادرهما في كتب السنه مع تبين درجة الحديث من صحة أو ضعف .

- ٣ - ترجمة بعض الأعلام في الرسالة
- ٤ - ترجمه معوى نكمت الغريبة في الرسالة
- ٥ - شعیق عن بعض النصوص احياناً

واخيراً أسأل المولى الكريم ان يجعل هذا العمل
في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وكتب ابو حفص
سيد ابراهيم صادق عمران
المنيا / كفر المنصورة
في ١١ من المحرم سنة ١٤١١ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وعليه نتوكل

قال الشيخ الإمام العالم العلامة محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية رضى الله عنه وأرضاه - فى كتابه الذى سيره من تبوك^(١) ثامن المحرم سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة - بعد كلام له سبق :

أحمد الله بحامده التى هو لها أهل ، والصلاة والسلام على خاتم رسله وأنبيائه : محمد ﷺ .

وبعد :

فإن الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه : ﴿ وَتَعَاُنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاُونُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة : ٢] .

● وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد فى معاشهم ومعادهم ، فيما بينهم وبعضهم بعضاً ، وفيما بينهم وبين ربهم ، فإن كل عبد لا ينفك^(٢) عن هاتين الحالتين ، وهذين الواجبين : واجب بينه وبين الله ، وواجب بينه وبين الخلق .

فأما ما بينه وبين الخلق : من المعاشرة والمعاونة والصحة ، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعهم ، وصحبته لهم ، تعاوناً على مرضاة الله وطاعته ، التى هى غاية سعادة العبد وفلاحه ولا سعادة له إلا بها ، وهى البر والتقوى ، اللذان هما جماع الدين كله ، وإذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل فى مسمى الآخر ، إما تضمناً ، وإما لزوماً ، ودخوله فيه تضمناً أظهر ؛ لأن البر جزء مسمى التقوى ، وكذلك التقوى ، فإنه جزء مسمى البر . وكون أحدهما لا يدخل فى الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفرد الآخر .

● ونظير هذا : لفظ « الإيمان والإسلام » و « الإيمان والعمل الصالح » و « الفقير والمسكين » و « الفسوق والعصيان » و « المنكر والفاحشة » ونظائره كثيرة .

● وهذه قاعدة جلية من أحاط بها زالت عنه إشكالات كثيرة أشكلت على كثير من الناس .

(١) نسبة إلى قرية « تبوك » على حدود الحجاز من جهة الشام

(٢) لا ينفك : لا ينفصل

البر والتقوى :

ولنذكر من هذا مثالا واحداً يستدل به على غيره ، وهو البر والتقوى .

فإن حقيقة البر : هو الكمال المطلوب من الشيء والمنافع التي فيه والخير ، كما يدل عليه اشتقاق هذه اللفظة وتصاريدها في الكلام .

ومنه « البر » بالضم لمنافعه وخيره بالإضافة إلى سائر الجبوب .

ومنه رجل بار ، وبر ، وكرام بررة ، والأبرار .

فالبر : كلمة جامعة لجميع أنواع الخير والكمال والمطلوب من العبد . وفي مقابلته الإثم . وفي حديث النواس بن سمعان أن النبي ﷺ قال له : « جئت تسأل عن البر والإثم » (٣) .

فالإثم كلمة جامعة للشرور والعيوب التي يذم العبد عليها .

فيدخل في معنى البر : الإيمان وأجزأؤه الظاهرة والباطنة ، ولا ريب أن التقوى جزء هذا المعنى . وأكثر ما يعبر عن بر القلب ، وهو وجود طعم الإيمان فيه وحلاوته ، وما يلزم ذلك

(٢) حديث « حئت تسأل عن البر والإثم .. »

(قلت) حديث النواس بن سمعان ليس فيه هذا اللفظ الذي ذكره المصنف رحمه الله وإنما هو عند مسلم من طريقين

(الأول) من طريق ابن مهدي عن معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه ، عن النواس بن سمعان الانصاري . قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال « البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك ، وكهرت أن يطلع عليه الناس .

(الثاني) من طريق عبد الله بن وهب . حدثني معاوية (يعني ابن صالح) عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه ، عن نواس بن سمعان . قال : أقيمت مع رسول الله ﷺ بالمدينة سنة . ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل رسول الله ﷺ عن شيء . قال فسألت عن البر والإثم « فقال رسول الله ﷺ « ... الحديث ... » صحيح مسلم في كتاب « البر والصلة » باب « تفسير البر والإثم » (ح ٤ / ١٤ ، ١٥ / ح ٢٥٥٣ / ص ١٩٨٠) والترمذي في كتاب « الزهد » باب « ما جاء في البر والإثم » (ح ٤ / ٢٣٨٩) وأحمد في « مسنده » (٤ / ١٨٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨) والدارمي (ح ٢ / ح ٢٧٨٩ / ريان) والحاكم في « المستدرک » (٢ / ١٤) وقال . حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقال الحاكم . ولم يخرجاه (قلت) بل أخرجه مسلم كما أتته في أول الحديث (قلت) وأما اللفظ الذي ذكره المصنف « حئت تسأل عن البر والإثم » فهو عند الدارمي (ح ٢ / ح ٢٥٢٣ / ريان) من حديث وابصة وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١ / ١٧٥) من طريقين .

(الأول) قال فيه . رواه أحمد والزار وفيه أبو عبد الله السلمي وقال في البرار الاسدي عن وابصة وعنه معاوية بن صالح ولم أجد من ترجمه .

(الثاني) قال فيه : رواه أحمد وأبو يعلى وفيه أيوب بن عبد الله بن مكرم قال ابن عدى لا يتابع على حديثه ووثقه ابن حبان . ١ . هـ .

من طمأنينته وسلامته ، وانشراحه وقوته ، وفرحه بالإيمان . فإن للإيمان فرحة وحلاوة ولذة في القلب ، فن لم يجدها فهو فاقد الإيمان أو ناقصه . وهو من القسم الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٤] .

فهؤلاء - على أصح القولين - مسلمون غير منافقين وليسوا بمؤمنين ؛ إذ لم يدخل الإيمان في قلوبهم فيباشرها حقيقة .

● وقد جمع الله خصال البر في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

● فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها .^(٤) .

وأنها الشرائع الظاهرة : من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنفقات الواجبة .

وأما الأعمال القلبية التي هي حقائقه ، من الصبر والوفاء بالعهد فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين ، حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب ، وأصول الإيمان الخمس ، ثم أخبر سبحانه عن هذه أنها هي خصال التقوى بعينها فقال ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ . [البقرة : ١٧٧] .

التقوى :

● وأما « التقوى » فحقيقتها العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً ، أمراً ونهيّاً ، فيفعل ما أمر

(٤) وذلك قول الله تعالى « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى ... الْآيَة » (سورة البقرة / ١٧٧)

وجاء في « الصحيح » عند مسلم في كتاب « الايمان » باب « بيان الإيمان والإسلام والإحسان » (ح ٥ / ١ / ٩) من حديث أبي هريرة وهو سؤال جبريل للنبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وجاء فيه ما الإيمان ؟ قال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر ... الحديث .

الله به إيماناً بالأمر وتصديقاً بوعده ، ويترك ما نهى الله عنه إيماناً بالنهي وخوفاً من وعيده .
كما قال طلق بن حبيب^(٥) : « إذا وقعت الفتنة فاطفئوها بالتقوى ، قالوا : وما التقوى ؟
قال : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور
من الله ، تخاف عقاب الله » .

● وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى .^(٦)

فإن كل عمل لابد له من مبدأ وغاية ، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره
عن الإيمان ، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض ، لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة
والجاء وغير ذلك ، بل لابد أن يكون مبدؤه محض الإيمان ، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته
وهو الاحتساب .

ولهذا كثيراً ما يقرن بين هذين الأصلين في مثل قول النبي ﷺ : « من صام رمضان إيماناً
واحتساباً » و « ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً »^(٧) ونظائره .

فقوله « على نور من الله » إشارة إلى الأصل الأول وهو الإيمان الذي هو مصدر العمل
والسبب الباعث عليه .

وقوله « ترجو ثواب الله » إشارة إلى الأصل الثاني وهو الاحتساب ، وهو الغاية التي
لأجلها يوقع العمل ، ولها يقصد به .

(٥) هو طلق بن حبيب العنزي ، بصرى ، صدوق عابد ، رُوى بالارضاء مات بعد التسعين .

(تقریب التهذيب ١ / ٢٨٠)

(٦) قال ابن قيم الجوریه فی کتابه العظیم « الفوائد » :-

ودع ابن عون رجلاً فقال عليك تقوى الله فإن المتقى ليست عليه وحشة .

وقال سليمان بن داود :- أوتينا مما أوتى الناس وما لم يؤتوا وعلمنا بما علم الناس وما لم يعملوا فلم نجد شيئاً أفضل من
تقوى الله في السر والعلانية . والعدل في العضب والرضا : والقصد في الفقر والعنى .

« أنظر الفوائد بتحقيقنا »

(٧) قلت الحديث ورد مفصلاً ومتصلاً وسأذكر الحديث الذي ذكره المصنف متصلاً .. اخرج البخارى في كتاب « فصل
ليلة القدر » باب « فصل ليلة القدر » (ح ٤ / ح ٢٠١٤ / فتح) من حديث ابى هريرة رضى الله عنه عن النبي
ﷺ قال « من صام رمضان إيماناً وإحساناً غفر له ما تقدم من ذنبه ومن قام ليلة القدر إيماناً وإحساناً غفر له
ما تقدم من ذنبه » .

ومسلم في كتاب « صلاة المسافرين وقصرها » باب « الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح » (ح ١ / ١٧٥ /
٧٦٠ / ص ٥٢٣) من حديث ابى هريرة .

(الحديث متفق عليه) .

ولا ريب أن هذا اسم لجميع أصول الإيمان وفروعه ، وأن البر داخل في هذا المسمى .
وأما عند اقتران أحدهما بالآخر ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٢] ، فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها ، فإن البر مطلوب لذاته ؛ إذ هو كمال العبد وصلاحه الذى لا صلاح له بدونه كما تقدم .

وأما التقوى فهى الطريق الموصل إلى البر والوسيلة إليه ، ولفظها يدل على هذا . فإنه فعلى ، ومن وقى يقى ، وكان أصلها وقوى ، فقبلوا الواو تاء ، كما قالوا تراث من الورثة ، وتجاه من الوجه ، وتحمته من الوحمة ، ونظائرها فلفظها دال على أنها من الوقاية ، فإن المتقى قد جعل بينه وبين النار وقاية ، والوقاية من باب دفع الضر ، فالتقوى والبر كالعافية والصحة .

العلم النافع :

● وهذا باب شريف ينتفع به انتفاعاً عظيماً في فهم ألفاظ القرآن ودلالته ، ومعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، فإنه هو العلم النافع .

وقد ذم الله تعالى في كتابه من ليس له علمٌ محدود ما أنزل الله على رسوله (٨) .

● فإن عدم العلم بذلك مستلزم مفسدتين عظيمتين .

إحداها : أن يدخل في مسمى اللفظ ما ليس منه ، فيحكم له بحكم المراد من اللفظ ، فيساوى بين ما فرق الله بينهما .

والثانية : أن يخرج من مسمى اللفظ بعض أفراد الداخلة تحته ، فيسلب عنه حكمه ، فيفرق بين ما جمع الله بينهما .

والذكى الفطن يتفطن لأفراد هذه القاعدة وأمثالها ، فيرى أن كثيراً من الاختلاف أو أكثره إنما ينشأ من هذا الموضع .

وتفصيل هذا لا يفى به كتاب ضخم .

(٨) وذلك قول الله تعالى ﴿ الْأَغْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبِقَاعًا وَأَجْدَرُ الْأُتْلُمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

ومن هذا لفظ: (الخمر) ، فإنه اسم شامل لكل مسكر ، فلا يجوز إخراج بعض المسكرات منه وينفى عنها حكه .

وكذلك لفظ : (الميسر) وإخراج بعض أنواع القمار منه .

وكذلك لفظ : (النكاح) وإدخال ماليس بنكاح في مسماه .

وكذلك لفظ : (الربا) وإخراج بعض أنواعه منه ، وإدخال ما ليس برأياً فيه .

وكذلك لفظ : (الظلم والعدل) و (المعروف والمنكر) ونظائره أكثر من أن تحصي .

● والمقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم : هو التعاون على البر والتقوى ، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علماً وعملاً .

فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه : فاقتضت حكمة الرب سبحانه أن جعل النوع الإنساني قائماً بعضه ببعضه ، معيناً بعضه لبعضه .

● ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] .

و (الإثم والعدوان) في جانب النهي نظير : (البر والتقوى) في جانب الأمر .

والفرق بين الإثم والعدوان كالفرق ما بين محرم الجنس ومحرم القدر .

الإثم :

فالإثم ما كان حراماً لجنسه .

والعدوان ما حرم لزيادة في قدره وتعدى ما أباح الله منه .

فالزنا والخمر والسرقة ونحوها . إثم .

ونكاح الخامسة واستيفاء الجني عليه أكثر من حقه ونحوه : عدوان .

العدوان :

فالعدوان هو تعدى حدود الله التي قال فيها : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وقال في موضع آخر : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾ [البقرة : ١٨٧] فنهى عن تعديها في آية وعن قربانها في آية . وهذا لأن حدوده سبحانه هي النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام ، ونهاية الشيء تارة تدخل فيه فتكون منه ، وتارة لا تكون داخله فيه فيكون لها حكم

المقابلة . فالاعتبار الأول نهى عن تعديها ، وبالاعتبار الثانى نهى عن قربانها .

فصل

ما بين العبد وربه

● فهذا حكم العبد فيما بينه وبين الناس ، وهو أن تكون مخالطته لهم تعاوناً على البر والتقوى ، علماً وعملاً .

● وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالى : فهو إيثار طاعته وتجنب معصيته ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

فأرشدت الآية إلى ذكر واجب العبد بينه وبين الخلق وواجبه بينه وبين الحق .

ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا بعزل نفسه من الوسط ، والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر ، ولا يتم له أداء الواجب الثانى إلا بعزل الخلق من البين^(٩) ، والقيام له بالله إخلاصاً ومحبة وعبودية .

● فينبغى التفتن لهذه الدقيقة ، التى كل خلل يدخل على العبد فى أداء هذين الأمرين الواجبين إنما هو من عدم مراعاتها علماً وعملاً . وهذا معنى قول الشيخ عبد القادر قدس الله روحه^(١٠) « كن مع الحق بلا خلق ، ومع الخلق بلا نفس ، ومن لم يكن كذلك لم يزل فى تخبيط ولم يزل أمره فرطاً » .

والمقصود بهذه المقدمة ما بعدها .

فصل

فى الهجرة إلى الله ورسوله

● لما فصل عير السفر واستوطن المسافر دار الغربنة وحيل بينه وبين مألوفاته وعوائده المتعلقة بالوطن ولوازمه : أحدث له ذلك نظراً فأجال فكره فى أهم ما يقطع به منازل السفر إلى الله وينفق فيه بقية عمره ، فأرشده من بيده الرشد إلى أن أهم شئ يقصده إنما هو الهجرة إلى

(٩) البين : فى كلام العرب جاء على وجهين : يكون البين الفرقة ويكون الوصل ، بان يبين بيناً وبينونه وهو من

الأضداد وشاهد البين الوصل

« لسان العرب ١٢ / ٦٢ »

الله ورسوله ، فإنها فرض عين على كل أحد في كل وقت ، وأنه لا انفكك لأحد عن وجوبها ، وهي مطلوب الله ومراد من العباد .

نوعا الهجرة

إذ الهجرة هجرتان :

هجرة بالجسم من بلد إلى بلد ، وهذه أحكامها معلومة ، وليس المراد الكلام فيها .
والهجرة الثانية : الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله ، وهذه هي المقصودة هنا . وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية وهي الأصل ، وهجرة الجسد تابعة لها^(١١) .

مبدأ الهجرة ومنتهىها :

- وهي هجرة تتضمن (من) و (إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته .
ومن عبودية غيره إلى عبوديته .
ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه ، إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه .
ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه ، وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له .
وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى : ﴿ ففِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [الناريات : ٥٠] .
والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه .

الفرار إلى الله :

- وتحت (من) و (إلى) في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد .
فإن الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها ، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التي اتفقت عليها دعوة الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(١١) أخرج البخارى في كتاب « الايمان » باب « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » (ح ١٠ / ١٠ / فتح) من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » قال ابن حجر في الفتح : وهذه الهجرة ضربان : ظاهرة وباطنة . فالباطنة ترك ما تدعو اليه النفس الامارة بالسوء والشيطان ، والظاهرة الفرار بالدين من الفتن .

الفرار من الله :

● وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر ، وأن كل ما في الكون من المكروه والمخذور الذي يفر منه العبد ، فإنما أوجبته مشيئة الله وحده ، فإنه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته ، وما لم يشأ لم يكن ، وامتنع وجوده لعدم مشيئته . فإذا فر العبد إلى الله فإنما يفر من شيء إلى شيء واجد بمشيئة الله وقدره فهو في الحقيقة فار من الله إليه .

● ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله ﷺ : « وأعوذ بك منك » (١٢) .

وقوله « لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك » (١٣) فإنه ليس في الوجود شيء يُفر منه ويستعاذ منه ، ويلتجأ منه ، إلا هو من الله خلقاً وإبداعاً .

فالفار والمستعيز : فإر مما أوجده قدر الله ومشيئته إلى ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه ، ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه ، ومستعيز بالله منه .

وتصور هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكليّة خوفاً ورجاء وعبة ، فإنه إذا علم أن الذي يفر منه ويستعيز منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلق لم يبق في قلبه خوف من غير خالقه وموجده ، فتضمن ذلك إفراة الله وحده بالخوف والحب والرجاء ، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته ، لكان ذلك موجباً لخوفه منه : مثل من يفر

(١٢) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب « الصلاة » باب « ما يقال في الركوع والسجود » (ح ١ / ٢٢٢ / ح ٤٨٦ / ص ٣٥٢) من حديث أبي هريرة عن عائشة : قالت : فقد رسول الله ﷺ ليلة من الفرائض . فالتفت فوجدت ندى على بطن قدميه وهو في المسجد . وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك . وبمعافاتك من عقوبتك . وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » . وأخرجه الترمذی (ح ٥ / ح ٣٤٩٣) وأبو داود (ح ١ / ح ٨٧٩) والنسائي (١ / ١٠٢) وابن ماجه (١ / ح ١١٧٩) من حديث علي بن أبي طالب وأحمد في « مسنده » (١ / ٩٦ ، ١١٨ ، ١٥٠) من حديث علي بن أبي طالب . (٦ / ٥٨ ، ١ ، ٢) من حديث أبي هريرة عن عائشة رضى الله عنها ...

(١٣) أخرجه البخاري في كتاب « الوضوء » باب « فضل من بات على الوضوء » (ح ١ / ح ٢٤٧) من حديث البراء بن عازب قال : قال النبي ﷺ « إذا أتيت منجماً فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الايمن ثم قال . اللهم أسأت وجهي إليك ، وفوتت أمري إليك ، وألحأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك . اللهم امتت بكتانك الذي أنزلت ، وسبك الذي أرسلت فان مت من ليلتك فأنت على الفطرة . واجعلهن آخر ما تتكلم به » . قال : فرددنها على النبي ﷺ ، فلما بلغت « اللهم امتت بكتانك الذي أنزلت » قلت : ورسولك . قال « لا . ونسأك الذي أرسلت » .

وأخرجه مسلم في كتاب « الذكر » باب « ما يقول عند النوم وأخذ المصحف » (ح ٤ / ٥٦ / ح ٢٧١٠ / ص ٢٠٨١ ، ٢٠٨٢) من حديث البراء بن عازب وأخرجه أيضاً أبو داود والترمذی وابن ماجه والدارمی وأحمد في المسند ،

من مخلوق آخر أقدر منه ، فإنه في حال فراره من الأول خائف منه حذراً ألا يكون الثاني يفيد منه ، بخلاف ما إذا كان الذى يفر إليه هو الذى قضى وقدر وشاء ما يفر منه ، فإنه لا يبقى في القلب التفات إلى غيره .

● فتفتن إلى هذا السر العجيب في قوله « أعوذ بك منك » و « لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك » فإن الناس قد ذكروا في هذا أقوالاً وقل من تعرض منهم لهذه النكتة التي هي لب الكلام ومقصوده . وبالله التوفيق .

الهجرة إلى الله :

● فتأمل كيف عاد الأمر كله إلى الفرار من الله إليه ؛ وهو معنى الهجرة إلى الله تعالى .
ولهذا قال النبي ﷺ : « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه »^(١٤) ولهذا يقرن الله سبحانه بين الإيمان والهجرة في غير موضع لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر .

● والمقصود : أن الهجرة إلى الله تتضمن هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه ، وأصلها الحب والبغض ، فإن المهاجر من شيء لا بد أن يكون ما هاجر إليه أحب مما هاجر منه ، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر . وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعوانه إلى خلاف ما يحبه ويرضاه ، وقد بلى هؤلاء الثلاث ، فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه ، وداعى الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه ، فعليه في كل وقت أن يهاجر إلى الله ، ولا ينفك في هجرته إلى المات .

فصل

الهجرة بين القوة والضعف

● وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب داعى المحبة في قلب العبد ، فإن كان الداعى أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل . وإذا ضعف الداعى ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً ، ولا يتحرك لها إرادة .

الهجرة العارضة :

● والذي يقضى منه العجب : أن المرء يوسع الكلام ويفرع المسائل في الهجرة من دار

(١٤) سبق تخريجه برقم (١١)

وأيضاً هو عند ابي داود والنسائي وابن ماجه واحمد ... ،

الكفر إلى دار الإسلام . وفي الهجرة التي انقطعت بالفتح^(١٥) ، وهذه هجرة عارضة ربما لا تتعلق به في العمر أصلاً .

الهجرة الدائمة :

● وأما هذه الهجرة التي هي واجبة على مدى الأنفاس ، فإنه لا يحصل فيها علماً ولا إرادة ، وما ذاك إلا للإعراض عما خلق له . والاشتغال بما لا يجنيه وحده عما لا ينجيهِ غيره . وهذا حال من عشت بصيرته وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال . والله المستعان وبالله التوفيق ، لا إله غيره ولا رب سواه .

فصل

في الهجرة إلى رسول الله ﷺ

● وأما الهجرة إلى رسول الله ﷺ ، فعلم لم يبق منه سوى اسمه ، ومنهج لم تترك بنيات الطريق سوى رسمه ، ومحجة سفت^(١٦) عليها السواقي فطمست رسومها ، وغارت عليها الأعداى فغوّرت مناهلها وعبونها ، فسالكها غريب بين العباد ، فريد بين كل حى وناد ، بعيد على قرب المكان ، وحيد على كثرة الجيران ، مستوحش مما به يستأنسون ، مستأنس بما به يستوحشون ، مقيم إذا ظعنوا^(١٧) ، طاعن إذا قطنوا^(١٨) ، منفرد في طريق طلبه ، لا يقر قراره حتى يظفر به . فهو الكائن معهم بجسده ، البائن منهم بمقصده ، نامت في طلب الهدى أعينهم ، وما ليل مطيته بناءم . وقعدوا عن الهجرة النبوية ، وهو في طلبها مشتر قائم ، يعيبونه بمخالفة أرائهم ، ويزرون عليه إزراءه على جهالاتهم وأهوائهم ؛ قد رجوا فيه الظنون ، وأحدقوا فيه العيون ، وتربصوا به ريب المنون ﴿ فَتَرْبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتْرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة : ٥٢] .

(١٥) أخرج البخارى في كتاب « الجهاد والسير » باب « فضل الجهاد والسير » (ح ٦ / ٢٧٨٢ / فتح) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية . وإذا استنفرم فامروا » . (ح ٦ / ح ٢٨٢٥ ، ٣٠٧٧) من حديث ابن عباس ومسلم في كتاب « الامارة » باب « المبايعة بعد

فتح مكة على الاسلام والجهاد والخير » (ح ٣ / ٨٦ / ح ١٨٦٤ / ص ١٤٨٨) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(١٦) سفت : سعت الريح التراب تسعيه سفيأ : درته

(قلت) يريد المؤلف رحمه الله أن يقول ان هذه الهجرة ضاعت بين الناس واندرست وضاع معالمها كما تذر الريح التراب على الشيء فتطمسه .

(١٧) طعنوا : ساروا

(١٨) قطنوا : القطنوا : الإقامة . قطن بالكان يقطن قطنوا : أقام به ونوطن ، فهو فاطن .

(لسان العرب / مادق / طعن / قطن)

﴿ قَالَ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

[الأنبياء : ١١٢] .

نحن وإيمانكم نموت ، فما أفلح عند الحساب من ندما

● والمقصود : أن هذه الهجرة النبوية شأنها شديد . وطريقها على غير المعتاد بعيد .

بعيد على كسلان أو ذى ملالة أما على المشتاق فهو قريب

ولعمر الله ، ما هي إلا نور يتلألأ ، ولكن أنت ظلامه ، وبدر أضاء مشارق الأرض ومغارها ، ولكن أنت غيه وقتامه . ومنهل عذب صاف ، وأنت كدره ومبتدأ لخير عظيم ، ولكن ليس عندك خبره .

فاسمع الآن شأن هذه الهجرة والدلالة عليها ، وحاسب ما بينك وبين الله ، هل أنت من المهاجرين لها ، أو المهاجرين إليها ؟

تعريف الهجرة إلى الرسول ﷺ :

● فحد هذه الهجرة : سفر النفس في كل مسألة من مسائل الإيمان ، ومنزل من منازل القلوب ، وحادثة من حوادث الأحكام إلى معدن الهدى ، ومنبع النور الملتقى من فم الصادق المصدوق الذى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٢ ، ٤] .

فكل مسألة طلعت عليها شمس رسالته ، وإلا فاقذف بها في بحر الظلمات ، وكل شاهد غدله هذا المزكى وإلا فعده من أهل الريب والتهات ، فهذا حد هذه الهجرة .

فما للمقيم في مدينة طبعه وعوائده ، القاطن في دار مرباه ومولده ، القائل : إنا على طريقة آبائنا سالكون ، وإنا بمجبلهم متمسكون ، وإنا على آثارهم مقتدون . ولهذه الهجرة التي كُتِّ (١٩) عليهم ، واستند في طريقة نجاحه وفلاحه إليهم ، معترداً بأن رأيهم خير من رأيه لنفسه ، وأن ظنونهم وآراءهم أوثق من ظنه وحده .

ولو فتشت عن مصدر مقصود هذه الكلمة لوجدتها صادرة عن الإخلاق إلى أرض البطالة ، متولدة بين الكسل وزوجه الملالة (٢٠) .

(١٩) كُتِّ : أى أغيت (وهى كذا بالأصل . ولعل صوابه « فهو يعيش كلاً عليهم » أى عالة عليهم)

(من نسخة الدكتور محمد حميل غارى)

(٢٠) الملالة : وهو أن تملّ شيئاً وتعرض عنه

(لسان العرب مادة ملل)

هـجـرتان :

● والمقصود : أن هذه الهجرة فرض على كل مسلم ، وهى مقتضى « شهادة أن محمداً رسول

ﷺ » .

كما أن الهجرة الأولى مقتضى « شهادة أن لا إله إلا الله » .

وعن هاتين الهجرةين يسأل كل عبد يوم القيامة ، وفى البرزخ ، ويطلب بها فى الدنيا ودار البرزخ ودار القرار^(٢١) .

● قال قتادة^(٢٢) : « كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرين : ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين ؟ » .

وهاتان الكلمتان هما مضمون الشهادتين . وقد قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء : ٦٥] . فأقسم سبحانه بأجل مقسم به - وهو نفسه عز وجل - على أنه لا يثبت لهم الإيمان ، ولا يكونون من أهله ، حتى يحكموا رسول الله ﷺ فى جميع موارد النزاع فى جميع أبواب الدين .

فإن لفظة « ما » من صيغ العموم ، فإنها موصلة تقتضى نفى الإيمان أو يوجد تحكيه فى جميع ما شجر بينهم .

ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه ، حيث لا يجدون فى أنفسهم حرجاً - وهو الضيق والحصر - من حكمه ، بل يقبلوا حكمه بالانشراح ، ويقابلوه بالتسليم لأنهم يأخذونه على إغماض ، ويشربونه على قذى ، فإن هذا منافى للإيمان ، بل لابد أن يكون أخذه بقبول ورضا وانشراح صدر .

(٢١) يقصد المؤلف هنا رحمه الله بالمهجرةين هما « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . ففى البرزخ : يسأله الملكان كما جاء فى حديث البراء بن عازب عند الامام أحمد من ربك وما دينك وما تقول فى الرجل الذى بعث فيكم ؟

(وفى الدنيا) لا يكون العبد مسلماً إلا بها .
(وفى دار القرار) لن يدخل العبد الجنة إلا بهما لقول النبى ﷺ من شهد ان لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار) رواه مسلم والترمذى وأحمد من حديث عباده ..
(٢٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسى البصرى الاكبه ، كان تابعياً وعالمًا كبيراً وكان اجمع الناس وهو ثقة ثبت مات سنة سبع عشرة ومائة بواسط .

« تقريب التهذيب ٢ / ١٢٣ / وفيات الاعيان ٤ / ٨٥ »

● ومتى أراد العبد أن يعلم هذا فلينظر في حاله ، ويطالع قلبه عند ورود حكمة على خلاف هواه وغرضه ، أو على خلاف ماقلد فيه. أسلافه من المسائل الكبار وما دونها ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ .

[القيامة : ١٤ ، ١٥]

فسبحان الله ! كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص وبودهم أن لو لم ترد ! وكَم من حرارة في أكبادهم منها ! وكَم من شجى في حلوقهم منها ومن موردها ! ستبدو لهم تلك السرائر بالذى يسوء ، ويخزى يوم تبلى السرائر .

● ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى : ﴿ وَيَسْلُمُوا تسلياً ﴾

[النساء : ٦٥]

فذكر الفعل مؤكداً بمصدره القائم مقام ذكره مرتين . وهو التسليم والخضوع له والانقياد لما حكم به طوعاً ورضا ، وتسليماً لا قهراً ومصابرة كما يسلم المقهور لمن قهره كرهاً ، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذى هو أحب شئ إليه ، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليمه إليه ، ويعلم بأنه أولى به من نفسه ، وأبر به منها وأقدر على تخليصها .

فتى علم العبد هذا من رسول الله ﷺ واستسلم له ، وسلم إليه : انقادت له كل علة في قلبه ورأى أن لا سعادة له إلا بهذا التسليم والانقياد .

وليس هذا مما يحصل معناه بالعبارة ، بل هو أمر انشق القلب واستقر في سويدائه لا تفى العبارة بمعناه . ولا مطمع في حصوله بالدعوى والأمانى .

وكلٌ يــــدعى وصلّاً لليلى ولىلى لا تقرُّ لهم بـــــــذاكا

الحب بين العلم والحال :

● وفرق بين علم الحب وحال الحب . فكثيراً ما يشبه على العبد علم الشئ بحاله ووجوده ، وفرق بين المريض العارف بالصحة والاعتدال ؛ وهو مثخن بالمرض ، وبين الصحيح السليم ، وإن لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها . وكذلك فرق بين وصف الخوف والعلم به وبين حاله ووجوده .

ما فى الآية من تأكيد اتباع الرسول :

● وتأمل تأكيده سبحانه لهذا المعنى المذكور فى الآية بوجوه عديدة من التأكيد :

أولها : تصديرها بتضمن القسم عليه للنفى وهو قوله « لا يؤمنون » وهذا منهج معروف في كلام العرب ، إذا أقسموا على شيء منفي صَدَرُوا جملة القسم بأداة نفى مثل هذه الآية .
ومثل ما في قول الصديق أبو بكر رضى الله عنه : « لاها لله (٢٣) - لا يعمد إلى أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه » .

وقول الشاعر :

فلا وأبيك ابنة العامري لا يـدعى القـبـوم أنى أفر
وقال الآخر :

فلا والله لا يلقى لـا بي ولا لـا بهم أبداً دواء
وهذا في كلامهم أكثر من أن يذكر .

● وتأمل جل القسم التي في القرآن المصدرة بحرف النفى كيف تجدد القسم عليه منفيًا ومتضمنًا للنفى ؟ ولا يخرم (٢٤) هذا قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة : ٧٥ - ٧٧] .

فإنه لما كان المقصود بهذا القسم نفى ما قاله الكفار في القرآن : من أنه شعر ، أو كهانة ، أو أساطير الأولين ، صدر القول بأداة النفى . ثم أثبت له ما قالوه . فتضمنت الآية أن ليس الأمر كما يزعمون ، ولكنه قرآن كريم .

ولهذا صرح بالأمرين : النفى والإثبات مثل قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِقِ الْمُبِينِ . وَمَاهُو عَلَى الْغَيْبِ بَظُنَيْنٍ . وَمَاهُو بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ . [التكويد : ١٥ - ٢٥] .

وكذلك قوله : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ . أَيَحْسَبُ

(٢٣) أخرج البخارى في كتاب « المغازى » باب (٥٤) (ح ٧ / ح ٤٣١) حديثاً في غزوة حنين لأبي محمد مولى أبي قتادة وفي آخره لفظ أبي بكر الصديق رضى الله عنه قوله :-

« لاها الله ، إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ﷺ فيعطيك سلبه .. الحديث

قال ابن حجر في « الفتاح » لاها الله ما فعلت كذا .

(انظر الفتاح ٧ / ٦٣٣ / ريان)

(٢٤) يخرم : ينقص .

الإنسان أَلَّن نَجْمَع عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بِنَانَهُ ﴿ [القباة : ١ - ٤] .

● والمقصود : أن افتتاح هذا القسم بأداة النفي يقتضى تقوية المقسم عليه ، وتأكيده وشدة انتفائه .

وثانيها : تأكيده بنفس القسم .

وثالثها : تأكيده بالمقسم به وهو إقسامه بنفسه لا بشئ من مخلوقاته ، وهو سبحانه يقسم بنفسه تارة وبمخلوقاته تارة .

ورابعها : تأكيده بانتفاء الحرج ، وهو وجود التسليم .

وخامسها : تأكيد الفعل بالمصدر ، وما هذا التأكيد إلا لشدة الحاجة إلى هذا الأمر العظيم ، وإنه مما يعتنى به ويقرر في نفوس العباد بما هو من أبلغ أنواع التقرير .

حب الرسول :

وقال تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] ، وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين^(٢٥) ، وهذه الأولوية تتضمن أموراً :

منها : أن يكون أحب إلى العبد من نفسه ؛ لأن الأولوية أصلها الحب ، ونفس العبد أحب له من غيره ، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها ، وأحب إليه منها ، فبذلك يحصل له اسم الإيمان .

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الاتقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة ، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه .

ومنها : أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً ، بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده ، فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها .

فياعجباً كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول ﷺ عن منصب

(٢٥) أخرج البخارى في كتابه « الايمان والنذور » باب « كيف كانت بين النبي ﷺ » (ح ١١ / ح ٦٦٣٢ / فتح) من حديث عبد الله بن هشام قال : « كنا مع النبي ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : يا رسول الله ، لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسي . فقال النبي ﷺ : لا والذي نفسى بيده ، حتى اكون أحب إليك من نفسك . فقال عمر : فانه الآن والله لأنت أحب إلى من نفسي . فقال النبي ﷺ : الآن يا عمر .

التحكيم ، ورضى بحكم غيره واطمأن إليه أعظم من اطمئنانه إلى الرسول ﷺ ، وزعم الهدى لا يتلقى من مشكاته وإنما يتلقى من دلالة العقول ، وأن الذى جاء به لا يفيد اليقين ، إلى غير ذلك من الأقوال التى تتضمن الإعراض عنه ، وعما جاء به ، والحوالة فى العلم النافع إلى غيره ، ذلك هو الضلال البعيد ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ماسواه ، وتوليته فى كل شئ وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به ، فإن شهد له بالصحة قبله ، وإن شهد له بالبطلان رده . وإن لم تتبين شهادته له لا بصحة ولا ببطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أى الأمرين أولى به ؟

● فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة واستقام له علمه وعمله ، وأقبلت وجوه الحق إليه من كل جهة .

أدعياء المحبة :

● ومن العجب أن يدعى حصول هذه الاولوية والمحبة التامة من كان سعيه واجتهاده ونصبه فى الاشتغال بأقوال غيره وتقريرها ، والغضب والمحبة لها والرضا بها والتحاكم إليها ، وعرض ما قاله الرسول عليها ، فإن وافقها قبله ، وإن خالفها التمس وجوه الحيل ، وبالغ فى رده لياً وإعراضاً .

الإعراض عن الرسول :

كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

[النساء : ١٣٥]

● وقد أشتملت هذه الآية على أسرار عظيمة يجب التنبيه على بعضها لشدة الحاجة إليها .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

[النساء : ١٣٥]

فأمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل فى هذه الآية ، وهذا أمر بالقيام به فى حق كل أحد عدواً كان أو ولياً وأحق ما قام له العبد بقصد الأقوال والآراء والمذاهب : إذ هى متعلقة بأمر الله وخبره .

فالقيام فيها بالهوى والمعصية مضاد لأمر الله ، مُنافٍ لما بعث به رسوله . والقيام فيها بالقسط وظيفه خلفاء الرسول في أمته وأمنائه بين أتباعه . ولا يستحق اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض نصيحة لله ولكتابه ورسوله ولعباده .

وأولئك هم الوارثون حقاً .

لا من يجعل أصحابه ونخلته ومذهبه معياراً على الحق وميزاناً له ، يعادى من خالفه ويوالى من وافقه بمجرد موافقته ومخالفته^(٢٦) ، فأين هذا من القيام بالقسط الذى فرضه الله على كل أحد ؟ وهو فى هذا الباب أعظم فرضاً وأكبر وجوباً ؟

شهداء الله :

● ثم قال (شهداء الله) الشاهد هو المخبر ؛ فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول ، وإن أخبر بباطل فهو شاهد زور .

وأمر تعالى أن يكون شهيداً له مع القيام بالقسط وهذا يتضمن أن تكون الشهادة بالقسط وأن تكون لله لا لغيره .

وقال فى الآية الأخرى : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة : ٨] فتضمنت الآيتان أموراً أربعة :

أحدها : القيام بالقسط .

الثانى : أن يكون لله .

الثالث : الشهادة بالقسط .

الرابع : أن تكون لله .

واختصت آية النساء بالقسط والشهادة لله .

وآية المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من أسرار القرآن ، ليس هذا موضع ذكره .

● ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ فأمر سبحانه أن

(٢٦) قلت (ما اكتره فى أيماننا هذه حيث يكون الفرد فى جماعة من الجماعات معياراً عند جماعته على الحق وميزاناً له تعادى من خالفه وتوالى من وافقه مادام كلامه موافقاً لكلام جماعته وفرقته ولو خالف هذا الفرد الكتاب والسنة وإجماع الأمة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

يقام بالقسط ويشهد على كل أحد ولو كان أحب الناس إلى العبد فيقوم بالقسط على نفسه والديه اللذين هما أصله ، وأقاربه الذين هم أخص به والصدى من سائر الناس ، فإن كان مافى العبد من محبة لنفسه ولوالديه وأقربيه يمنعه من القيام عليهم بالحق ، ولا سيما إذا كان الحق لمن يبغضه ويعاديه قبلهم ، فإنه لا يقوم به فى هذا الحال إلا من كان الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواها .

وهذا يمتحن به العبد إيمانه فيعرف منزلة الإيمان من قلبه ومحله منه ، وعكس هذا عدل العبد فى أعدائه ومن يجفوه ، فإنه لا ينبغي أن يحمله بغضه لهم أن يحيف عليهم ، كما لا ينبغي أن يحمله حبه لنفسه والديه وأقاربه على أن يترك القيام عليهم بالقسط ، فلا يدخله ذلك البغض فى باطل ، ولا يقصر به هذا الحب عن الحق . كما قال بعض السلف : العادل هو الذى إذا غضب لم يدخله غضبه فى باطل ، وإذا رضى لم يخرج رضى عن الحق .

● اشتملت الآيتان على هذين الحكيم : وهما القيام بالقسط والشهادة به على الأولياء والأعداء .

● ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ [النساء : ١٣٥] . منكم ، هو ربها ومولاهما وهما عبيده ، كما أنكم عبيده فلا تحابوا غنياً لغناه ، ولا فقيراً لفقره ، فإن الله أولى بها منكم .

وقد يقال فيه معنى آخر أحسن من هذا ، وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط وأداء الشهادة على الغنى والفقير .

أما الغنى فخوفاً على ماله ، وأما الفقير فلإعدامه وأنه لا شئ له : فتتساهل النفوس فى القيام عليه بالحق فقليل لهم : والله أولى بالغنى والفقير منكم ، أعلم بهذا وأرحم بهذا ، فلا تركوا أداء الحق والشهادة على غنى ولا فقير .

● ثم قال تعالى ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ .

[النساء : ١٣٥]

نهام عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ منصوب الموضع لأنه مفعول لأجله ، وتقديره عند البصريين كراهية أن تعدلوا ، أو حذر أن تعدلوا ، فيكون اتباعكم للهوى كراهية العدل أو فراراً منه . وعلى قول الكوفيين التقدير أن لا تعدلوا ، وقول البصريين أحسن وأظهر .

اللى والإعراض :

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

[النساء : ١٣٥] .

ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتان الحق ، محذراً منها ومتوعداً عليهما .

أحدهما : اللى .

والآخر : الإعراض .

فإن الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يروم دفعها طريقاً إلى دفعها ، أعرض عنها وأمسك عن ذكرها فكان شيطاناً أخرس ، وتارة يلويها ويحرفها .

اللى مثال القتل وهو التحريف .

وهو نوعان : لى فى اللفظ ، ولى فى المعنى .

فاللى فى اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق ، إما بزيادة لفظة أو نقصانها أو إبدالها بغيرها .

ولى فى كيفية أدائها وإيهام السامع لفظاً وإرادة غيره ، كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبى ﷺ وغيره ، فهذا أحد نوعى اللى .

والنوع الثانى منه : لى المعنى وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم ، وبجهالة مالم يرده أو يسقط منه لبعض المراد به ، ونحو هذا من لى المعانى ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

● ولما كان الشاهد مطالباً بأداء الشهادة على وجهها فلا يكتفها ولا يغيرها كان الإعراض نظير الكتمان .

واللى نظير تغييرها وتبديلها .

فتأمل ما تحت هذه الآية من كنوز العلم .

● والمقصود : أن الواجب الذى لا يتم الإيمان ، بل لا يحصل مسمى الإيمان إلا به ، مقابلة النصوص بالتلقى والقبول والإظهار لها ودعوة الخلق إليها ، ولا تقابل بالاعتراض تارة وباللى أخرى .

الخيرة لله :

● وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] فدل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في كل مسألة من المسائل حكم طلبى أو خبرى ، فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه ، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً ، فدل على أن ذلك منافى للإيمان .

موقف الأئمة من السنة : (٢٧)

● وقد حكي الشافعى رضى الله عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد ، ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعى رضى الله تعالى عنه .

فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ،

(٢٧) ذكر الاستاذ الشيخ محمد بن ابراهيم الشيبانى فى كتابه (حياة الالبانى وأثاره وثناء العلماء عليه) كلام العلامة المحدث الالبانى فيما كتبه عن الأئمة الاربعه وموقفهم من السنة . وسأقتل بعض ما جاء عنهم مختصراً ..
أولاً : الامام ابو حنيفه النعمان رحمه الله قال :-

- ١ - إذا صح الحديث فهو مذهبي
- ٢ - لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه
- ٣ - حرام على من لم يعرف دليلى ان يفتى بكلام ، وراد فى روايته « فاننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً »
- وفى أخرى « ويحك يا يعقوب (هو أبو يوسف) لا تكتب كل ما تسمع منى ، فانى قد أرى رأى اليوم وأتركه غداً ، وأرى رأى غدا وأتركه بعد غد »
- ٤ - إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول ﷺ فاتركوا قولى .

ثانياً : الامام مالك بن أنس رحمه الله قال :

- ١ - انما انا بشر اخطئ وأصيب فانظروا فى رأى فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه »
- ٢ - ليس لأحد بعد النبى ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك ، إلا النبى ﷺ .

ثالثاً : الامام الشافعى رحمه الله قال :-

- ١ - مامن احد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه فهما قلت من قول ، أو أصلت من أصل ، فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت ، فالقول ما قال رسول الله ﷺ ، وهو قولى ..
- ٢ - أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله ﷺ « لم يحل له أن يدعها لقول أحد » (ما ذكره المصنف) وله اقوال أخرى فى هذا كثيرة .

وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع ، فضلا عن أن يعارض بها النصوص وتقدم عليها ، عياداً بالله من الخذلان .

● وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [المائدة : ٩٢] .

فأخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها ، فإنه معلق بالشرط فينتفى بانتفائه وليس هذا من باب دلالة المفهوم ، كما يغلط فيه كثير من الناس ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة . بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها ، إذ ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه ؛ وإلا لم يكن شرطاً له .

إذا ثبت هذا : فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته (٢٨) .

● وفي إعادة الفعل في قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ دون الاكتفاء بالفعل الأول ، سر لطيف وفائدة جليلة ، سنذكرها عن قريب إن شاء الله تعالى .

● وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ [النور : ٥٤] .

الفعل للمخاطبين . وأصله فإن تولوا ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

والمعنى : أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها ، وحملت طاعته والالتقياد له والتسليم .

كما ذكره البخارى في صحيحه عن الزهرى قال : « من الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم » (٢٩) .

= رابعاً : الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قال :

- ١ - لا تقلدنى ولا تقلد مالكاً ولا الشافعى ولا الاوزاعى ولا الثورى وخذ من حيث اخذوا .
 - ٢ - رأى الاوزاعى ورأى مالك ورأى ابن حنيفة كله رأى ، وهو عندي سواء ، ولما الحجة في الآثار .
 - ٣ - من رد حديث رسول الله ﷺ « فهو على شفا هلكة »
- قال الالبانى : تلك هى اقوال الأئمة رضى الله تعالى عنهم فى الأمر بالتسك بالحديث ، والنهى عن تقليدهم دون بصيرة ، وهى من الوصوح والبيان ، بحيث لا تقبل جدلاً ولا تأويلاً
- ١ . هـ بتصرف حياة الالبانى (ح ١ / ٤١٠ : ٤١٨)

(٢٨) النساء / ٥٩ ، المائدة / ٩٢

(٢٩) ذكره البخارى فى كتاب « التوحيد » باب قول الله تعالى (يأيا الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) (ح ١٣ / ص ٥١٢ / فتح ريان) من كلام الزهرى ولفظه (من الله عز وجل الرسالة وعلى رسول الله ﷺ البلاغ ، وعلينا التسليم) .

فإن تركتم أتم ما حملتموه من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه .
فإنه لم يحمل إيمانكم وإنما حل تبليغكم
وإنما حمل أداء الرسالة إليكم .

﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤] ليس
عليه هداهم وتوفيقهم .

● وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ
مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] .

النداء بالإيمان :

فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله .

● وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان، المشعر ، بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذى
نودوا وخطبوا به ، كما يقال : يامن أنعم الله عليه وأغناه من فضله ، أحسن كما أحسن الله
إليك ، ويأياها العالم علم الناس ما ينفعهم ، ويأياها الحاكم احكم بالحق ونظائره .

● ولهذا كثيراً ما يقع الخطاب فى القرآن بالشرائع كقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ﴾ [الجمعة : ٩] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة : ١] .

ففى هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين فالإيمان يقتضى منكم كذا وكذا ، فإنه من موجبات
الإيمان وتماه .

● ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ
مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولى الأمر ، وسلط عليهما عاملاً واحداً . وقد كان ربما
يسبق إلى الوهم أن الأمر يقتضى عكس هذا ، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله . ولكن
الواقع هنا فى الآية المناسب .

وتحتة سر لطيف وهو دلالة على أن ما يأمر به رسوله يجب طاعته فيه ، وإن لم يكن

مأموراً به بعينه في القرآن طاعة الرسول مفردة ومقرونة .

فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن ، وإلا فلا تجب طاعته فيه .
كما قال النبي ﷺ : « يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يأتيه الأمر من أمرى فيقول
بيننا وبينكم كتاب الله تعالى ، ما وجدنا فيه من شيء اتبعناه ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله
معه » (٣٠) .

طاعة أولى الأمر :

● أما أولو الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول ؛ لا طاعة
مفردة مستقلة ، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال : « على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره مالم
يؤمر بمعصية الله تعالى . فإذا أمر بمعصية الله تعالى فلا سمع ولا طاعة » (٣١) .

فتأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ فردوه إلى الله والرسول ﴾ ولم
يقُل ﴿ وإلى الرسول ﴾ فإن الرد إلى القرآن رد إلى الله والرسول ، فما حكم به الله تعالى هو
بعينه حكم رسوله ، وما يحكم به الرسول ﷺ هو بعينه حكم الله .

فإذا رددتم إلى الله ما تنازعتم فيه يعني كتابه فقد رددتموه إلى رسوله . وكذلك إذا رددتموه
إلى رسوله فقد رددتموه إلى الله ، وهذا من أسرار القرآن .

من هم أولو الأمر :

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى في أولى الأمر ، وعنه فيهم رحمه الله
تعالى روايتان :

إحداهما : أنهم العلماء

(٣٠) أخرجه ابو داود في كتاب « السنة » باب « في لزوم السنة » (ح ٤ / ٤٦٠٤) من حديث المقدم بن معد يكرب
لفظ أوله « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ... الحديث » وأحد في « مسنده » (٤ / ١٣١) بمثل حديث أبي
داود .

وذكره التبريزي في « مشكاة المصابيح » (ح ١ / ١٦٣) وقال الألباني : سنده صحيح .
(٣١) أخرجه البخاري في كتاب « الأحكام » باب « السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية » (ح ١٣ / ٧١٤٤ / فتح)
من حديث ابن عمر .

ومسلم في كتاب « الإمارة » باب « وجوب طاعة الامراء في غير معصية وتخريجها في المعصية » (ح ٣ / ٣٨ /
ح ١٨٣٩ / ص ١٤٦٩) والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد ...

والثانية : أنهم الأمراء .

والقولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية ، والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعاً ، فإن العلماء والأمراء ولاية الأمر الذي بعث الله به رسوله ، فإن العلماء ولاته حفظاً وبياناً وذباً عنه ورداً على من ألد فيه وزاغ عنه .

وقد وكلهم الله بذلك فقال تعالى : ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ وَكَلَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٩] فيألفها من وكالة أوجبت طاعتهم والالتواء إلى أمرهم وكون الناس تبعاً لهم .

والأمراء ولاته قياماً وعناية وجهاداً وإلزاماً للناس به ، وأخذهم على يد من خرج عنه .

وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الإنساني تبع لها ورعية .

● ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله ورسوله لا إلى أحد غير الله ورسوله ، فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله ، ومن دعا عند النزاع إلى حكم غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية ، فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (٣٢) وهذا مما ذكرنا أنفاً أنه شرط ينتفى بالمشروط بانتفائه ، فدل على أن من حكم غير الله ورسوله في موارد مقتضى النزاع كان خارجاً من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وحسبك بهذه الآية العاصمة القاصمة بياناً وشفاء ، فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها ، عاصمة للمتسكين بها الممثلين ما أمرت به .

● قال الله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته ، والرد إلى سنته بعد وفاته .

سعادة الدارين :

● ثم قال تعالى ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] أى هذا الذى أمرتم به

من طاعتي وطاعة رسول وأولياء الأمر ورد ما تنازعتم فيه إلى وإلى رسول خير لكم في معاشكم ومعادكم ، وهو سعادتكم في الدارين ، فهو خير لكم وأحسن عاقبة .

فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله ، هو سبب السعادة عاجلا وآجلا . ومن تدبر العالم والشور الواقعة فيه علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته ، وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول .

وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها ، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه ، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن في الأرض شر قط ، وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض ، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه ، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول ، ولأن طاعته هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين ، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين .

فعلم أن شرور الدنيا والآخرة إنما هو الجهل بما جاء به الرسول ﷺ والخروج عنه . وهذا بزهان قاطع على أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً والقيام به عملاً .

كمال السعادة :

● وكال هذه السعادة بأمرين آخرين .

أحدهما : دعوة الخلق إليه .

والثاني : صبره واجتهاده على تلك الدعوة .

الكمال الإنساني :

● فانحصر الكمال الإنساني على هذه المراتب الأربعة :

أحدها : العلم بما جاء به الرسول ﷺ .

والثانية : العمل به .

والثالثة : نشره في الناس ودعوتهم إليه .

والرابعة : صبره وجهاده في أدائه وتنفيذه .

ومن تطلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضى الله عنهم ، وأراد اتباعهم فهذه المريقتهم حقاً :

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم فقد وضعت للسالكين عياناً
وقال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سأ : ٥٠] .

فهذا نص صريح في أن هدى الرسول ﷺ إنما يحصل بالوحى ، فيا عجباً ! كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة ؟ ولكن : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلُّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾

[الكهف : ١٧] .

فأى ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحى ، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأى فلان ؟ وقول زيد وعمرو ؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه الهلية العظمى والمصيبة الكبرى ، والحمد لله رب العالمين .

● وقال تعالى : ﴿ الْمَصَ . كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لَتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١ : ٣] . فأمر سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله ونهى عن اتباع غيره . فما هو إلا اتباع المنزل . واتباع أولياء من دونه . فإنه لم يجعل بينهما واسطة . فكل من لا يتبع الوحى فإنما يتبع الباطل واتباع أولياء من دون الله ، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به .

● وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان : ٢٧ - ٢٨] .

فكل من اتخذ غير الرسول ، بترك لأقواله وأرائه ما جاء به الرسول ﷺ فإنه قائل هذه المقالة لا محالة . ولهذا هذا الخليل كنى عنه باسم فلان . إذ لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان .

فهذا حال الخليلين المتخاذلين على خلاف طاعة الرسول ﷺ ومآل تلك الخلطة إلى العداوة واللعنة .

كما قال الله تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ .

[الرخوف : ٦٧] .

وقد ذكر حال هؤلاء الأتباع وحال من تبعوهم في غير موضع من كتابه وكقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٦٦ - ٦٨] تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك . واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراهم ورؤساهم . واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك ، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول ، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية . وبالله التوفيق .

● وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ . قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَنِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذوقوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

[الأعراف : ٣٧ - ٣٨] .

فليتدبر العاقل هذه الآيات ، وما اشتملت عليه من العبر .

الصفهان المبتطلان :

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ ذكر الصفين المبتطلين .

أحدهما : منشئ الباطل والفرية وواضعها وداعى الناس إليها .

والثاني : مكذب بالحق .

فالأول : كفره بالافتراء وإنشاء الباطل .

والثاني : كفره ببحود الحق .

وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل . فإن انضاف إلى ذلك دعوته إلى باطله وصد الناس عن الحق استحق تضعيف العذاب لكفره وشره .

ولهذا قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : ٨٨] فلما كفروا وصدوا عباده عن سبيله عذبهم عذابين : عذاباً بصددهم عن سبيله .

وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدد العذاب .

كقوله تعالى : ﴿ وَالْكَافِرِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣٣) .

وقوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ يَنْالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعنى ينالهم ما كتب لهم في الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا إِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ زالوا وفارقوا وبطلت تلك الدعوة ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ . قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾ ادخلوا في جملة هذه الأمم ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ ﴾ كل أمة متأخرة لأسلافها ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ ﴾ ضاعفه عليهم بما أضلونا وصدونا عن طاعة رسلك ، قال الله تعالى ﴿ لِكُلِّ ضِعْفٍ ﴾ من الأتباع والمتبعين بحسب ضلاله وكفره ﴿ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ لا تعلم كل طائفة بما فيه أختها من العذاب المضاعف .

﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ فإنكم جئتم بعدنا فأرسلت فيكم الرسل وبينوا لكم الحق وحذروكم من ضلالنا ونهوكم عن اتباعنا وتقليدنا ، فأبيتم إلا اتباعنا وتقليدنا ، وترك الحق الذى أوتيتكم به الرسل . فأى فضل كان لكم علينا ، وقد ضللتكم كما ضللنا ، وتركتم الحق كما تركنا ، فضللتم أنفسكم بنا كما ضللنا نحن بقوم آخرين . فأى فضل كان لكم علينا ؟

﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ فله ما أشفاها من موعظة وما أبلغها من نصيحة ، لو صادفت من القلوب حياة . فإن هذه الآية وأمثالها ، مما يذكر قلوب السائرين إلى

(٣٣) لا توجد آية في كتاب الله بنفس النص والصحيح من كتاب الله تعالى قوله (وللكافرين عذاب أليم) « البقرة /

الله ، وأما أهل البطالة فليس عندهم من ذلك خبر .

فصل

معركة الأتباع والمتبوعين

فهذا حكم الأتباع والمتبوعين المشركين في الضلالة .

وأما الأتباع المخالفون لمتبوعهم ، العادلون عن طريقته الذين يزعمون أنهم لهم تبع وليسوا متبعين لطريقتهم ، فهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧] .

فهؤلاء المتبوعون كانوا على هدى ، وأتباعهم ادعوا أنهم كانوا على طريقته ومنهاجهم ، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقتهم ، يزعمون أنهم يحبونهم ، وأن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم ، فيتبرءون منهم يوم القيامة ، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله وظنوا أن هذا الاتحاد ينفعهم .

● وهذه حال كل من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء ، يوالى لهم ويعادى لهم ، ويرضى ويغضب لهم ، فإن أعماله ، كلها باطلة يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبها فيها ونصبه ، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته ، ومحبته وبغضه ، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله ، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله وقطع تلك الأسباب ، فينقطع يوم القيامة كل وصلة ووسيلة ومودة ، وموالاته كانت لغير الله تعالى ، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربّه ، وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله ، وتجريد عبادته له وحده ولوازمها من الحب والبغض ، والعطاء والمنع ، والموالات والمعاداة والتقريب والإبعاد ، وتجريده متابعة رسوله وترك أقوال غيره ، وترك ما خالف ما جاء به ، والإعراض عنه وعدم الاعتناء به ، وتجريد متابعتة تجريداً محضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره ، فضلاً عن الشركة بينه وبين غيره ، فضلاً عن تقديم قول غيره عليه .

● فهذا هو السبب الذى لا ينقطع بصاحبه ، وهذه هى النسبة التى بين العبد وبين ربه ، وهى نسبة العبودية المحضة ، وهى آخيته^(٣٤) التى يحول ما يحول ثم إليها مرجعه .

(٣٤) الأخية ، بالمد والتشديد ، واحدة الأواخى : وهو عود يعرض فى الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة تشد إليه الدابة : =

تقل فؤادك حيث شئت من الهوى

_____ الحب إلا للحبيب الاول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى

وحنينه أبداً لأول منزل

وهذه هي النسبة التي تنفع العبد ، فلا ينفعه غيرها في الدور الثلاثة : أعنى دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، فلا قوام له ، ولا عيش ، ولا نعيم ، ولا فلاح إلا بهذه النسبة . وهي السبب الواصل بين العبد وبين الله ، ولقد أحسن القائل :

إذا تقطع جبل الوصل بينهم

فلمحبين جبل غير منقطع

وإن تصدع شمل القوم بينهم

فلمحبين شمل غير منصدع

● والمقصود أن الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها ، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التي بين العبد وبين الله فقط ، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقيق بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم ، وما عرفت إلا بهم ، ولا سبيل إليها إلا بتابعتهم . وقد قال تعالى : ﴿ وَقَدِّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾

[الفرقان : ٢٣] .

● فهذه هي أعماله التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه ، يجعلها الله هباءاً منثوراً . ولا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلاً ؛ وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة : أن يرى سعيه كله ضائعاً لم ينتفع منه بشيء ، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله ، وقد سعد أهل السعى النافع بسعيهم .

فصل

الأتباع السعداء

● فهذا حكم أتباع الأشقياء ، فأما أتباع السعداء فنوعان :

= قال ابو منصور : سمعت بعض العرب يقول للحبل الذي يدفن في الأرض مثنياً ويرز طرفاه الآخران شبه حلقه وتشد به الدابة آخية .

(لسان العرب - مادة أخوا - ٢٣ / ١٤)

أتباع لهم حكم الاستقلال وهم الذى قال الله عز وجل فيهم : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضا الله عنهم ، وهم أصحاب رسول الله ﷺ وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة . ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط ، وإنما خص التابعين من رأوا الصحابة تخصيصاً عرفياً ليميزوا به عن بعدهم فقيل : التابعون مطلقاً لذلك القرن فقط ، وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين لهم بإحسان ، وهو من رضى الله عنهم ورضوا عنه .

الإحسان فى التبعية :

● وقيد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والاتباع فى شئ والخالفة فى غيره ، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان .

وأن الباء هاهنا للمصاحبة .

والإحسان والمتابعة شرط فى حصول رضا الله عنهم وجناته .

وقد قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كُنَّا لَنَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يُلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة : ٢ - ٤] .

● فالأولون : هم الذين أدركوا رسول الله ﷺ وصحبوه .

والآخرون : هم الذين لم يلحقوهم ، وهم كل من بعدهم على مناهجهم إلى يوم القيامة ، فيكون التأخر وعدم اللحاق فى الفضل والرتبة ، بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق فى الرتبة ، والقولان كالتلازمين ، فإن من بعدهم لا يلحقون بهم لا فى الفضل ولا فى الزمان ، فهؤلاء الصنفان هم السعداء .

وأما من لم يقبل هدى الله الذى بعث به رسوله ولم يرفع به رأساً فهو من الصنف الثالث وهم : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة : ٥] .

● وقد ذكر النبي ﷺ أقسام الخلائق بالنسبة إلى دعوته وما بعث به من الهدى في قوله ﷺ « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه في الدين فنفعه ما بعثني الله به ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » (٣٥)

الغيث والعلم :

● فشبهه ﷺ العلم الذي جاء به بالغيث لأن كلا منهما سبب الحياة ، فالغيث سبب حياة الأبدان ، والعلم سبب حياة القلوب .

وشبه القلوب بالأودية كما في قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد : ١٧] .

الأرض والغيث :

● وكما أن الأرضين بالنسبة إلى قبول الغيث .

إحداهما : أرض زكية قابلة للشراب والنبات ، فإذا أصابها الغيث ارتوت ومنه يثمر النبت من كل زوج بهيج .

فذلك مثل القلب الزكي الذكي (٣٦) ، فهو يقبل العلم بذكائه ، فيثمر فيه وجوه الحكم ودين الحق بذكائه ، فهو قابل للعلم ، مثمر لموجبه وفقهه وأسرار معادنه .

والثانية : أرض صلبة قابلة لثبوت ما فيها وحفظه ، فهذه تنفع الناس لورودها والسقى منها والازدراع .

وهو مثل القلب الحافظ للعلم الذي يحفظه كما سمعه ، فلا تصرف فيه ، ولا استنبط ، بل للحفظ المجرد فهو يؤدي كما سمع ، وهو من القسم الذي قال فيه النبي ﷺ : « فَرَبٌّ حَامِلٌ فَقَهٌ

(٣٥) أخرجه البخاري في كتاب « العلم » باب « فضل من عِلِمَ وَعَلِمَ » (ح ١ / ٧٩ / فتح) ومسلم في كتاب

« الفضائل » باب « بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم » (ح ٤ / ١٥ / ح ٢٢٨٢ / ص ١٧٨٧) من

حديث أبي موسى

واحد في « مسنده » (٤ / ٣٩٩) من حديث أبي موسى الأشعري ..

(٣٦) الزكي الذكي : الصالح سريع الفطنة .

إلى من هو أفقه ، ورب حامل فقه غير فقيه « (٣٧) .

فالأول : كمثل الغنى التاجر الخبير بوجوه المكاسب والتجارات فهو يكسب بماله ما شاء .

والثاني : مثل الغنى الذى لا خبرة له بوجوه الربح والمكسب ، ولكنه حافظ لما لا يحسن التصرف والتقلب فيه .

والأرض الثالثة : أرض قاع ، وهو المستوى الذى لا يقبل النبات ، ولا يسك ماء ، فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنتفع منه بشيء .

فهذا مثل القلب الذى لا يقبل العلم والفقه والدراية ، وإنما هو بمنزلة الأرض البوار التى لا تنبت ولا تحفظ ، وهو مثل الفقير الذى لا مال له ، ولا يحسن يسك مالا .

فالأول : عالم معلم ، وداع إلى الله على بصيرة ، فهذا من ورثة الرسل .

والثاني : حافظ مؤد لما سمعه ، فهذا يحمل لغيره ما يتجر به المحمول إليه ويستثمر .

والثالث : لا هذا ولا هذا ، فهو الذى لم يقبل هدى الله ، ولم يرفع به رأساً .

فاستوعب هذا الحديث أقسام الخلق فى الدعوة النبوية ومنازلهم . منها قسمان : قسم سعيد وقسم شقى .

فصل

أطفال المؤمنين

● وأما النوع الثانى من الأتباع : فهم أتباع المؤمنين من ذريتهم الذين لم يثبت لهم حكم التكليف فى دار الدنيا ، وإنما هم مع آبائهم تبع لهم .

وقال الله تعالى فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الطور : ٢١] .

(٣٧) أخرجه ابو داود فى كتاب « العلم » باب « فضل نشر العلم » (ح ٢ / ٣٦٠) من حديث زيد بن ثابت ، والترمذى (ح ٥ / ٢٦٥٦) وقال ابو عيسى : حديث زيد بن ثابت حديث حسن . ، وابن ماجه (١ / ٢٣١) ، (٢ / ٣٠٥٦) والدارمى (ح ١ / ٢٢٨ / ريان) من حديث جبير بن مطعم .
وذكره الالبانى فى « صحيح الجامع » برقم (٦٧٦٥) ، (٦٧٦٦) وقال : صحيح ولفظ الحديث (نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه فرب حامل فقه إلى من هو افقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه) اللفظ لابي داود من حديث زيد بن ثابت ..

● أخبر سبحانه أنه ألحق الذرية بآبائهم في الجنة كما أتبعهم إياهم في الإيمان .
ولما كان الذرية لا عمل لهم يستحقون به تلك الدرجات قال تعالى : ﴿ وَمَا أَتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الطور : ٢١] .
والضمير عائد إلى الذين آمنوا .

أى وما نقصناهم من عملهم بل رفعنا ذريتهم إلى درجاتهم مع توفيتهم أجور أعمالهم ؛ فليست منزلتهم منزلة من لم يكن له عمل ، بل وفيناهم أجورهم فألحقنا بهم ذريتهم فوق ما يستحقون من أعمالهم .

● ثم لما كان هذا الإلحاق في الثواب والدرجات فضلا من الله ، فربما وقع في الوهم أن إلحاق الذرية أيضاً حاصل لهم في حكم العدل ، فلما اكتسبوا سيئات أوجبت عقوبة ، كان كل عامل رهيناً بكسبه لا يتعلق بغيره شيء . فالإلحاق المذكور إنما هو في الفضل والثواب لا في العدل والعقاب ، وهذا نوع من أسرار القرآن وكنوزه التي يختص الله بفهمها من شاء .

● فقد تضمنت هذه الآية أقسام الخلائق كلهم : أشقيائهم وسعائهم .

السعداء المتبوعين والأتباع .

والأشقياء المتبوعين والأتباع .

فعلى العاقل الناصح لنفسه أن ينظر في أى الأقسام هو ، ولا يغتر بالعادة ويخلد إلى البطالة ، فإن كان من قسم سعيد انتقل إلى ما هو فوقه وبذل جهده ، والله ولى التوفيق والنجاح . وإن كان من قسم شقى انتقل منه إلى القسم السعيد في زمن الإمكان قبل أن يقول : ﴿ ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴾ (٢٨) .

فصل

سفر الهجرة

● والمقصود بهذا أن من أعظم التعاون على البر والتقوى التعاون على سفر الهجرة إلى الله والرسول باليد واللسان والقلب والمساعدة والنصيحة تعلية وإرشاداً ومودة .

ومن كان هكذا مع عباد الله فكل خير إليه أسرع ، وأقبل الله إليه بقلوب عباده ، وفتح

على قلبه أبواب العلم ، ويسره لليسرى .
ومن كان بالصد فبالصد .

زاد المسافر :

● فإن قلت : قد أشرت إلى سفر عظيم وأمر جسيم ، فما زاد هذا السفر وما طريقه وما مركبه ؟

قلت : زاده العلم الموروث من خاتم الأنبياء ﷺ ولا زاد له سواه ، فمن لم يحصل هذا الزاد فلا يخرج من بيته وليتقعد مع الخالفين .

فرفقاء المتخلف البطالون أكثر من أن يحصلوا ، فله أسوة بهم ، ولن ينفعه هذا التأسى يوم الحسرة شيئاً كما قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٩] فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسى بعضهم ببعض في العذاب ، فإن مصائب الدنيا إذا عمت صارت مسلاة ، وتأسى بعض المصابين ببعض كما قالت الخنساء (٢٩) :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
وما ييكون مثل أخى ولكن أسلى النفس عنه بالتأسى
فهذا الروح الحاصل من التأسى معدوم بين المشتركين في العذاب يوم القيامة .

طريق السفر :

● وأما طريقه : فهو بذل الجهد واستفراغ الوسع ، فلا ينال بالمنى ، ولن يدرك بالهوينى ، وإنما هو كما قيل :

فخض غمرات الموت واسم إلى العلا لكى تدرك العز الرفيع السدائم
فلا خير فى نفس تخاف من الردى ولا همة تصبو إلى لوم لائم
ولا سبيل إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين :

(٢٩) الخنساء : هى تماضر بنت عمرو بن الشريد وهى جاهلية كانت تقول الشعر فى زمن النابغة الذبياني - انشدته شعراً فقال لها : والله لولا أن أبى بصير انشدنى (أنفاً) لقلت إنك اشعر الجن والإنس .
قدمت على رسول الله ﷺ مع قومها فاسلمت معهم . شهدت القادسية ومعها اربعة بنين لها . وهى القائله حينها اخبرت باستشهادهم جميعاً الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من ربى ان يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .
(الشعر والشعراء / ٢١٢ ، اسد الغابه / ٧ / ٨٨)

أحدهما : أن لا يصبو في الحق إلى لوم لائم ، فإن اللوم يصيب الفارس فيصرعه عن فرسه ، ويجعله صريعاً في الأرض .

والثاني : أن تهون عليه نفسه في الله ؛ فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال ، فتخافت النفس تأخرت وأحجمت وأخلدت إلى الأرض ، ولا يتم له هذان الأمران إلا بالصبر ، فمن صبر قليلاً صارت تلك الأهوال ريحاً رخاء في حقه تحمله بنفسها إلى مطلوبه ، فبينما هو يخاف منها ، إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه .

مركب المسافر :

● وأما مركبه فصدق اللجأ إلى الله والاتقطاع إليه بكليته ، وتحقيق الافتقار إليه بكل وجه ، والضراعة إليه وصدق التوكل والاستعانة به ، والانطراح بين يديه انطراح المسلوب المكسور الفارغ الذي لا شيء عنده ، فهو يتطلع إلى قيمه ووليه أن يحذره ويلم شعثه ، ويمده من فضله ويستتره ، فهذا الذي يرجى له أن يتولى الله هدايته ، وأن يكشف له ما خفى على غيره من طريق هذه الهجرة ومنازلها .

فصل

التدبر والتفكر في آلاء الله

● ورأس الأمر وعموده في ذلك ، إنما هو دوام التفكير وتدبر آيات الله ، حيث تستولى على الفكر وتشغل القلب . فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه وجلس على كرسيه ، وصار له التصرف ، وصار هو الأمير المطاع أمره ، فحينئذ يستقيم له سيره ، ويتضح له الطريق ، وتراه ساكناً وهو يبارى الريح ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٨] .

فصل

أفلا يتدبرون القرآن ؟

● فإن قلت : إنك قد أشرت إلى مقام عظيم فافتح لي بابه ، واكشف لي حجابيه ، وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه ؟ وهذه تفاسير لأئمة بأيدينا فهل في البيان غير ما ذكرناه ؟

قلت : سأضرب لك أمثالا تحتذى عليها وتجعلها إماماً لك في هذا المقصد .

قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . قَرَأَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ . فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ . قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات : ٢٤ - ٣٠] .

فعهدى بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها . فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم ، وإنما امرأته عجبت من ذلك ، فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك - ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك .

● فاسمع الآن بعض مافي هذه الآيات من أنواع الأسرار .

وكم قد تضمنت من الشاء على إبراهيم .

وكيف جمعت الضيافة وحقوقها .

وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة .

وكيف تضمنت علماً عظيماً من أعلام النبوة .

وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي ردها إلى العلم والحكمة

وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بالطف إشارة وأوضحها ، ثم أفصحت وقوعه .

وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة .

وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما .

وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله ، وعلى اليوم الآخر .

وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة ، وهم المؤمنون بها .

وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها فلا ينتفع بتلك الآيات .

● فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة :

قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ .

افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام ، وليس المراد بها حقيقة الاستفهام ، ولهذا قال بعض الناس : إن (هل) في مثل هذا الموضع بمعنى (قد) التي تقتضي التحقيق . ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف ، ومعنى بديع ، فإن المتكلم إذا أراد أن

يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به ، وإحضار الذهن له ، صدر له الكلام بأداة الاستفهام ، لتنبية سمعه وذهنه للمخبر به ، فتارة يصدره بالآ ، وتارة يصدره بهل ، فقول : هل علمت ما كان من كيت وكيت ؟ إما مذكراً به ، وإما واعظاً له مخوفاً ، وإما منبهاً على عظمة ما يخبر به ، وإما مقررراً له .

فقوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ [طه : ١٠] و ﴿ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضِرِ ﴾

[ص : ٢١]

و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ ﴾ [الناشية : ١] و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات : ٢٤] متضمن لتعظيم هذه القصص والتنبية على تدبرها ومعرفة ما تضمنته .

ففيه أمر آخر .

وهو التنبية على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة ، فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك . فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا ؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا ؟ فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام ، وتأمل عظم موقعه من جميع موارد يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا .

وقوله : ﴿ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ متضمن لثنائه على خليله إبراهيم فإن في ﴿ المكرمين ﴾ قولين :

أحدهما : إكرام إبراهيم لهم ، ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف .

والثاني : أنهم مكرمون عند الله كقوله تعالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ وهو متضمن أيضاً لتعظيم خليله ومدحه ؛ إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافاً له ، فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم .

وقوله ﴿ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ ﴾ متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به ، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره : سلمنا عليك سلاماً . وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره : سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم ، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضى الثبوت وال لزوم ، والفعلية تقتضى التجدد والحدوث ، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن .

ثم قال ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذم منه وجهان

في المدح

أحدهما : أنه حذف المبتدأ والتقدير : أنتم قوم منكرون ، فتضمن منهم ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش .

وكان النبي ﷺ لا يواجه أحداً بما يكرهه بل يقول « ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا » (٤٠) .

(الثاني) قوله (قوم منكرون) فحذف فاعل الإنكار وهو الذي كان أنكرهم كما قال في موضع آخر (نكرهم) (٤١) ولا ريب أن قوله (منكرون) ألطف من أن يقول أنكرتم .

وقوله : ﴿ قَرَأَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ متضمن وجوهاً من المدح وأداب الضيافة وإكرام الضيف .

منها قوله : ﴿ قَرَأَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ والروغان الذهاب بسرعة واختفاء . وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف ، والاختفاء يتضمن ترك تحجيله وألا يعرض للحياء وهذا بخلاف من يتشاكل ويتبارد على ضيفه ثم يبرز بمرأى منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ ؛ ويتناول الإثناء بمرأى منه ونحو ذلك مما يتضمن تحجيل الضيف وحيائه ، فلفظة (راغ) تنفي هذين الأمرين . وفي قوله تعالى : ﴿ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله ، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه ، ولا يذهب إلى غير أهله إذ قرى الضيف حاصل عندهم .

وقوله ﴿ فَجَاءَ بِعَجْلٍ سَمِينٍ ﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح :

أحدها : خدمة ضيفه بنفسه ، فإنه لم يرسل به ، وإنما جاء به بنفسه .

الثاني : أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه ، ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا .

الثالث : أنه سمين ليس بمهزول ، وهذا من نفائس الأموال ، ولد البقر السمين فإنهم

(٤٠) (قلت) وردت هذه الجملة عند مسلم والنسائي في حديث الثلاثة الذين جاءوا يسألوا عن عسادة الذي ﷺ ... الحديث أخرجه مسلم في كتاب « النكاح » باب « استحباب الكاح لمن ساقط نفسه إليه » (ج ٢ / ٥ / ح ١٤٠١ / ص ١٠٢٠) من حديث أنس ، والنسائي (٦٠ / ٦) وابن حبان في « صحيحه » (١٠٨ / ١٤ / ١) من حديث أنس أيضاً وحده عند البيهقي في « شعب الإيمان » (٨٠٩٩ / ٦) من حديث عائشة بلقط . كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل ما بال فلان يقول : كذا ولكن يقول : ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ..

(٤١) (قلت) هذه اللفظة جاءت في سورة « هود الآية رقم (٧٠) في قول الله عز وجل . فلما رآه أبديهم لا تعلم إليه كرمهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ..

يعجبون به . فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره .

وقوله إليهم متضمن المدح وأدباً أخرى وهو إحضار الطعام بين يدي الضيف ، بخلاف من يهين الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه .

وقوله ألا تأكلون ؟ فيه مدح وأدب آخر : فإنه عرض عليهم الأكل بقوله ألا تأكلون ؟ وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف ، بخلاف من يقول : ضعوا أيديكم في الطعام ، كلوا ، تقدموا ، ونحو هذا .

وقوله فأوجس منهم خيفة لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضر منهم خوفاً أن يكون معهم شر ، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به ، فلما علموا منه ذلك ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَامَ عَلِيمٍ ﴾ وهذا الغلام إسحق لا إسماعيل ، لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت : عجوز عقيم لا يولد لمثلى ، فأنى لى بالولد ؟ وأما إسماعيل فيانه من سريته هاجر وكان بكره وأول ولده . وقد بين سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] وهذه هي القصة نفسها .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ فَبَصَّكَتْ وَجْهَهَا ﴾ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها ، إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار .

وقوله ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة ، فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل أنا عجوز عقيم ، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره ، وأما في سورة هود ، فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب^(٤٢) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾ : متضمن لإثبات صفة القول له .

وقوله ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر ، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته ، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته .

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال ، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية

(٤٢) وهو قول الله تعالى « قالت يا ويلتى أألد وأنا عَجُوزٌ وهذا بغلى شيخاً إن هذا لشيءٌ عَجيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ »

والقدرة والبقاء والسمع والبصر ، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام .
والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر ، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوها ، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب .

كل هذا العلم من اسمه الحكيم كما هي طريقه القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة : والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثاً وسدى وباطلاً ، فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب ، ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل ، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته .

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك ، وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى ، فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه .

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله عن غيرها ، كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة . متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس .

وإن ساعد التوفيق كتبت في ذلك سفرأ كبيراً ، لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشفاء والهدى وسرعة الإنصاف ، وحسن البيان ، والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما يثلج له الصدر ؛ ويكثر معه اليقين ، بخلاف غيره من الأدلة ، فإنها على العكس من ذلك وليس هذا موضع التفصيل .

● والمقصود أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته . واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلها عادة ، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد ، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة . فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة .

● ثم ذكر سبحانه وتعالى قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط ، وإرسال الحجارة السومة عليهم . وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم ، والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عياناً في هذا العالم ، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ

بَيِّتِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿ [الناريات : ٢٥ ، ٢٦] ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام .

فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة ، فهو إخراج نجاة من العذاب ، ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسول ظاهراً وباطناً .

وقوله تعالى : ﴿ قَمَّا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهى مسلمة فى الظاهر ، فكانت فى البيت بين الموجودين لا فى القوم الناجين ، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط ، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم ، وليست خيانة فاحشة ، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً ، وليست من المؤمنين الناجين .

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها ، تبين له من أسرارهِ وحكمه ما يبهى العقول ، وبعلم أنه تنزيل من حكيم حميد .

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو : إن الإسلام أعم من الإيمان فكيف استثناء الأعم من الأخص ، وقاعدة الاستثناء تقتضى العكس وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود ، والمؤمنين غير مستثنين منه ، بل هم المخرجون الناجون .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التى فعلها فى هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله ، إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد ، ويخشى عذاب الله تعالى .

كما قال الله تعالى فى موضع آخر : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ [هود : ١٠٣]

وقال تعالى : ﴿ سَيَذَكَّرُ مَن يَخْشَى ﴾ [الأعلى : ١٠] فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول : هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم ، ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة .

وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذى ينتفع بالآيات والمواعظ .

والمقصود بهذا إنما هو التنبيه والتثليل على تفاوت الأفهام فى معرفة القرآن واستنباط أسرارهِ وأثار كنوزه ويعتبر بهذا غيره ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

فصل

الرفيق والطريق

● والمقصود أن القلب لما تحول لهذا السفر طلب رفيقاً يأنس به في السفر ، فلا يجد إلا معارضا مناقضاً ، أو لائماً بالتأنيب مصرحاً ، أو فارغاً من هذه الحركة معرضاً ، وليت كل ما ترى هكذا ، فلقد أحسن إليك من خلاك وطريقك ولم يطرح شره عليك ، كما قال القائل :

إنما لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال

فإذا كان هذا المعروف من الناس . فالمطلوب في هذا الزمان المعاونة على هذا السفر بالإعراض وترك الأئمة والاعتراض ، إلا ما عسى أن يقع نادراً فيكون غنية باردة لا قيمة لها .

ولا ينبغي أن لا يتوقف العبد في سيره على هذه الغنية بل يسير ولو وحيداً غريباً ، فانفراد العبد في طريق طلبه دليل على صدق المحبة .

● ومن نظر في هذه الكلمات التي تضمنتها هذه الورقات ، علم أنها من أهم ما يحصل به التعاون على البر والتقوى ، وسفر الهجرة إلى الله ورسوله ، وهو الذي قصد سطرها بكتابتها وجعلها هديته المعجلة السابقة إلى أصحابه ورفقائه في طلب العلم .

وشهد الله وكفى بالله شهيداً ، ولو توافى أحداً منهم لقابلها بالقبول ولبادر إلى تفهمها وعدّها من أفضل ما أهدى صاحب إلى صاحبه ، فإن غير هذا من جريانات الركب الخيرية ، وإن تطلعت النفوس إليها ففائدتها قليلة وهي في غاية الرخص لكثرة جالبها ، وإنما الهدية النافعة كلمة يهديها الرجل إلى أخيه المسلم .

الموتى الأحياء ، والأحياء الموتى :

● ومن أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء ، فانه يبلغ بمرافقتهم إلى مقصده ، وليحذر من مرافقة لأحياء الذين هم في الناس أموات ، فإنهم يقطعون عليه طريقه ، فليس لهذا السالك أنفع من تلك المرافقة ، وأوفق له من هذه المفارقة ، فقد قال بعض السلف : شتان بين أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وبين أقوام أحياء تموت القلوب بمخالطتهم .

فما على العبد أضر من عشائره وأبناء جنسه ، فنظره قاصر وهيمته واقفة عند التشبه بهم . ومباهاتهم والسلوك أين سلكوا ، حتى لو دخلوا جحر ضب لأحب أن يدخله معهم .

● متى صرف همته عن صحبتهم إلى صحبة من أشباحهم مفقودة ومحاسنهم وآثارهم الجميلة في العالم موجودة ، استحدث بذلك همة أخرى وعملاً آخر ، وصار بين الناس غريباً ، وإن كان فيهم مشهوراً ونسبياً ، ولكنه غريب محبوب ، يرى ما الناس فيه ولا يرون ما هو فيه ؛ يقيم لهم المعاذير ما استطاع ، ويحضهم بجهد وطاقته ، سائراً فيهم بعينين : عين ناظرة إلى الأمر والنهي . بها يأمرهم وينهاهم ويواليهم ويعاديهم ، ويؤدي لهم الحقوق ويستوفيها عليهم . وعين ناظرة إلى القضاء والقدر ، بها يرحمهم ويدعو لهم ويستغفر لهم ، ويلتس وجوه المعاذير فيما لا يخل بأمر ولا يعود بنقض شرع ، وقد وسعهم بسطته ورحمته ولينه ومعذرتهم ، وقفاً عند قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] متدبراً لما تضمنته هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق وأداء حق الله فيهم والسلامة من شرهم . فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفقتهم ، فإن العفو ما عفى من أخلاقهم وسمحت به طبائعهم ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم .

● فهذا ما منهم إليه ، وأما ما يكون منه إليهم فأمرهم بالمعروف ، وهو ما تشهد به العقول وتعرف حسنه ، وهو ما أمر الله به . وأما ما يتقى به أذى جاهلهم فالإعراض عنه وترك الانتقام لنفسه والانتصار لها .

فأى كمال للعبد وراء هذا ؟ وأي معاشرة وسياسة لهذا العالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة ؟ فلو فكر الرجل في كل شر يلحقه من العالم . أعنى الشر الحقيقي الذى لا يوجب له الرفعة والزلفى من الله - وجد سببه الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها ، وإلا فمع القيام بها فكل ما يحصل له من الناس فهو خير له وإن شراً في الظاهر ، فإنه يتولد من الأمر بالمعروف ولا يتولد منه إلا خيراً وإن ورد في حالة شر وأذى .

كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور : ١١] .

وقال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [ال عمران : ١٥٩] وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق الله وحق الخلق ، فإنهم إما أن يسيئوا في حق الله أو في حق رسوله ، فإن أساءوا في حقك فقابل ذلك بعفوك عنهم ، وإن أساءوا في حقى فاسألنى أغفر لهم وأستجب لقلوبهم ، وأستخرج ما عندهم من الرأى بمشاورتهم ، فإن ذلك الرأى فى استجلاب طاعتهم وبذل النصيحة ، فإذا عزمتم فلا استشارة بعد ذلك ، بل توكل وامض لما عزمتم عليه من أمرك ، فإن الله يحب المتوكلين .

● فهذا وأمثاله من الأخلاق التي أدب الله بها رسوله وقال تعالى فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] قالت عائشة رضى الله عنها « كان خُلُقُهُ الْقُرْآنُ »^(٤٣) وهذا لا يتم إلا بثلاثة أشياء :

أحدها : أن يكون العود طيباً ، فأما إن كانت الطبيعة جافية غليظة يابسة عسر عليها مزاوله ذلك علماً وإرادة وعملاً ، بخلاف الطبيعة المنقادة اللينة السلسة القياد ، فإنها مستعدة إنما تريد الحرث والبذر .

الثاني : أن تكون النفس قوية غالبية قاهرة لدواعي البطالة والغبى والهوى ، فإن هذه الأمور تنافي الكمال ، فإن لم تقو النفس على قهرها وإلا لم تنزل مغلوبة مهورة .

الثالث : علم شاف بحقائق الأشياء وتنزيلها منازلها يميز بين السحم والورم ، والزجاجة والجوهر .

فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث وساعد التوفيق فهو القسم الذى سبقت لهم من ربهم الحسنى ، وتمت له العناية .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أبداً إلى يوم الدين . والحمد لله رب العالمين .

(٤٣) أخرجه مسلم من حديث طويل لاس عباس وفيه « سأل المؤمن أنس بن مالك عن خلق رسول الله ﷺ فقال : ألسنا نقرأ القرآن " قلت بلى . قالت : فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن . (انظر كتاب : معالم المسافر من : (ج ١ / ١٣٩ / ح ٧٦٦ / ص ٥١٢) وأبو داود (١٣٤٢ / ٢) والبيهقي (١٩٩ / ٣) بإسناد مسلم والبيهقي في شعبه . الأيمان » (ج ٣ / ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٧) بالمال غلظه من عنده طريق . والحاكم في المستدرک : (٣٩٢ / ٢) من حديث عائشة .

دليل الرسالة

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
فاتحة الرسالة	٥
البر والتقوى	٦
التقوى	٧
العلم النافع	٩
الإثم	١٠
العدوان	١٠
فصل : ما بين العبد وربه	١١
فصل : في الهجرة إلى الله ورسوله	١١
نوعا الهجرة	١٢
مبدأ الهجرة ومنتهاها	١٢
الفرار إلى الله	١٢
الفرار من الله	١٣
الهجرة إلى الله	١٤
فصل : الهجرة بين القوة والضعف	١٤
الهجرة العارضة	١٤
الهجرة الدائمة	١٥
فصل : في الهجرة إلى رسول الله ﷺ	١٥
تعريف الهجرة إلى الرسول ﷺ	١٦
هجرتان	١٧
الحب بين العلم والحال	١٨
ما في الآية من تأكيد اتباع الرسول	١٨
حب الرسول	٢٠
أدعياء المحبة	٢١
الإعراض عن الرسول	٢١

٢٢	شهداء الله
٢٤	التي والإعراض
٢٥	الخيرة لله
٢٥	موقف الأئمة من السنة
٢٧	النداء بالإيمان
٢٨	طاعة أولى الأمر
٢٨	من هم أولو الأمر
٢٩	سعادة الدارين
٣٠	كمال السعادة
٣٠	الكمال الإنساني
٣٢	الصفان المبطلان
٣٤	فصل : معركة الأتباع والمتبوعين
٣٥	فصل : الأتباع السعداء
٣٦	الاحسان في التبعية
٣٧	الغيث والعلم
٣٧	الأرض والغيث
٣٨	فصل : أطفال المؤمنين
٣٩	فصل : سفر الهجرة
٤٠	زاد المسافر
٤٠	طريق السفر
٤١	مركب المسافر
٤١	فصل : التدبر والتفكر في آلاء الله
٤١	فصل : أفلا يتدبرون القرآن ؟
٤٨	فصل : الرفيق والطريق
٤٨	الموق الأحياء ، والأحياء الموق



Bibliotheca Alexandrina



0333511

وزارة التربية

الإدارة والمكتبة : ١٤٠ شارع جوهر القائد - أمام جامعة الأزهر
تليفون : ٩١٩٦٩٧-٩١٨٧١٩-٩٢٦٥٠٨ تلکس ٩٢٩٨٥ - ٢٣١٦٣ كايرو سیتی